

خِواطر فِكْرية ((٣))

"فَلْسَفَةُ الْمَعْنَى: الْعِلَاجُ بِالْمَعْنَى الْمُتَسَامِي"



فيكتور فرانكل (1905م - 1997م)

"عُمُقُ":

"الوجودُ الإنساني هُوَ بِالضَّرُورَةِ تَسَامٍ بِالذَّاتِ وَتَجَاوُزٌ لَهَا أَكْثَرَ مِنْ أَنْ يَكُونَ تَحْقِيقًا لِلذَّاتِ!"^١.
فيكتور فرانكل (1905م - 1997م)^٢

بِدَايَةَ:

هَلْ يَسْتَطِيعُ الْإِنْسَانُ أَنْ يَتَمَسَّكَ بِالْحَيَاةِ وَلَا يَسْتَسَلِمَ فِي وَسْطِ الْأَلَمِ وَالْعَذَابِ الشَّدِيدِ الْمَحِيطِينَ بِهِ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ، بَلْ وَيَخْتَارُ الْحَيَاةَ وَيَجِدُ لَهَا مَعْنَى؟!
من تَجْرِبَةٍ شَخْصِيَّةٍ، إِلَى أَهَمِّ مُشْكَلٍ فِي الْوُجُودِ الْإِنْسَانِيِّ: "مُشْكَلُ الْمَعْنَى" أَوْ قُلْ مُشْكَلُ "إِرَادَةِ الْمَعْنَى" هَذِهِ الْإِرَادَةُ الْمَسَاوِقَةُ لـ: "إِرَادَةُ اللَّذَّةِ" وَمَبْدَأُ اللَّذَّةِ اللَّذِينَ تَمَرَّكَزَ حَوْلَهُمَا عِلْمُ النَّفْسِ الْفَرْوَيْدِيِّ؛ وَهِيَ كَذَلِكَ مَسَاوِقَةُ لـ: "إِرَادَةُ الْقُوَّةِ" وَمَبْدَأُ الْقُوَّةِ اللَّذِينَ تَمَرَّكَزَ حَوْلَهُمَا عِلْمُ النَّفْسِ الْآدَلْرِيِّ - (نِسْبَةٌ

¹ "الإنسان يبحثُ عن المعنى" د. فيكتور فرانكل، ترجمة: د/طلعت منصور، دار القلم - الكويت، ط: الأولى: ١٩٨٢م. (٢١٥ صفحة). (ص: ١٤٧).

² عالم وبروفيسور نمساوي، يعتبر زعيم المدرسة النمساوية الثالثة بعد فرويد، و آدلر في العلاج النفسي؛ كان مَعْلَمُهُ الْجَدِيدَ عَنْ أَسْلَافِهِ هُوَ: "العلاج بالمعنى". دخل تجارب شخصية -فضلا عن صدمته بوالده ووالدته وأخوه وزوجته اللذين قتلوا جميعا في معسكرات، و أفران الغاز النازية- عانى خلالها من التهميش في المعتقلات لمدة ثلاث سنوات، كانت الشرارة المحفزة له للاهتمام الفلسفي، في العلاج النفسي الوجودي. انظر سيرته مثلا في: (<http://webpace.ship.edu/cgboer/frankl.html>) أو معهد فيكتور فرانكل: (<http://logotherapy.univie.ac.at/d/person.html>) أو مقدمة الكتاب لجوردون أولبورت.

إلى: آدر)³ - ينطلقُ عَالِمُ النفس الفلسفي فيكتور فرانكل في كتابه: "الإِنسان يَبْحَثُ عَنِ الْمَعْنَى" الباحث فيه عن سبل العثور عن المعنى لهذه المفردة الوجودية المتعالية بدايةً وغايةً.

غدا فرانكل رمزا لأهم حركة في علم النفس المعاصر: ما يُعرفُ بالعلاج الوجودي الفلسفي: أحد كبرى علائق البحث الابستمولوجي الفلسفي في التحليل النفسي الوجودي⁴ والذي يعتبر حقلا من الحقول الخصبة لبذور مداخل النظر التجديدي في : ماهوية/وظاهرية الوعي النفسي، حسب منطق هـسرل الظاهراتي، الساعي إلى الإدراك المتعالي للظواهر الإنسانية.

السَّعْيُ لِإِفْرَاحِ الْوُجُودِ الْإِنْسَانِي:

عندما يفقد الإنسان الثقة يكون سلوكه فاقدا لإرادة الحياة، فاقدا لكل مقدرة على المواصلة⁵ التي تعطيه المعنى المتسامي، كيف تكون الحال سويًا إذا لم يرَ في الوجود سوى النقطة السوداء المعتمة التي تعكر صفو الحياة من كل ما هو جميل، ومن كل ما هو بريء، ومن كل ما هو متسامي؟!.

يصل القهر بفرانكل وزملائه إلى الذروة في المعتقل الذي جعله يتساءل عن عجائب تصرفاته غير القابلة للتفسير الطبي والنفسي السائد، الأمر الذي يجعل

3 الإنسان يبحث عن المعنى(ص: ١٣١).

4 حيثُ يقولُ منتقدا قصورَ نظرة الطب النفسي لإدراكِ تسامي الإنسان: "حاول الطب النفسي أن يفسر العقل الإنساني، على أنه مجرد نظام آلي" ميكانزم" وعلاج الأمراض العقلية على أساس تكيكي/ تقني: وأعتقدُ أن هذا الحلم قد تَبَدَّدَ!... وسوف يعترفُ هذا الأخصائي الفني بأنه لا يرى في مريضه شيئا أكثر من "ماكينة"! بدلا من أن يرى الكائن الإنساني المتسامي الذي يقف خلف المريض! فالكائن الإنساني ليس شيئا واحداً، بل أشياء أخرى! "أ.هـ (م.س. ص: ١٧٦، ١٧٧) بتصرف.

5 (م.س. ص: ٢٧).

من هذه التصرفات في تلك الظروف المريرة، مُكذِّباً للنظريات التي يضعها من لم يخوضوا التجربة الحقة؛ ففي خضم هذه التجارب المريرة ينام فيها فرانكل بجانب تسعة أشخاص ببطانيتين في صقيع البرد دون أن يمرض، ولا يغسل أسنانه لمدة طويلة ومع ذلك تبقى خلالها الأسنان واللثة أقوى من ذي قبل، ولا يجد فرصة للاغتسال لعدة أيام بسبب تجمد الماء في الصنابير ويبقى خلالها الجلد صليداً رغم التقرحات والقذارة من العمل في التراب، ورغم ما يراود الجميع من فكرة الانتحار التي هي الرسالة الأخيرة للإعلان عن العجز والإفلاس في مواصلة البحث عن المعنى والتسامي والدفاع عنهما، يصبح توقع الحياة ضعيفاً للغاية؛ حتى أن غرف الغاز وهي المرعبة فقدت بدورها القدرة على الإحافة والاستفزاز في هكذا ظروف!. الآن يُصبح لمقولة: "دوستويفسكي" معناها العميق هنا: "الإنسان كائن حي، بمقدوره أن يتعود على أي شيء!"؛ لكننا نقول لدوستويفسكي: "نعم، يستطيع الإنسان التعود على أي شيء، ولكن لا تسألنا كيف يتأتى ذلك؟! فبحوثنا النفسية لم تصل بنا حتى الآن إلى تفسير ذلك!"⁶.

عالم متوحش يطلب منك أن تكون وردي اللون باستمرار، يطلب منك أن تعمل بمقياسه الرقمي الوحيد: أن تُظهرَ قدرةً كافيةً في العمل والإنتاج، والاستهلاك!، وأن لا تُعرجَ أثناء المشي⁷ وإلا فلو لوحظ ذلك عليك فسيكون مصيرك غرف الغاز لتتبخر مع تلك المداخن!.

كيف تواجه كل هذا بـ: ابتسامة، تتسامى من غير سداجة بحثاً عن المعنى! لم لا و"ردُّ الفعل غير السوي، إزاء موقف غير سوي، هو هنا استجابة سوية!" فمثلاً من يُحوَّل إلى مستشفى للأمراض العقلية، سيكون لهذا التحويل ردود أفعال غير

⁶ (م.س. ص: ٣٨-٣٩) بتصرف.

⁷ (م.س. ص: ٤٠).

سوية هي: مقياس درجة سوائه⁸! إنها ظروف تحاول أن تقتل كل قيم الأنا التي يجب أن تكافح لحفظها وتقديرها حتى الرmq الأخير.

في ظروف بئسة ينتقل المَعْدَب فيها إلى الطور الثاني من ردود الفعل: طور البلادة والموت الانفعالي إزاء ردود الأفعال العقلية⁹: فعندما تقوم بتنظيف البالوعات والمراحيض من البراز ويتطاير على وجهك شيء منها، ولا تستطيع أن تتأفف أو تهمس ببنت شفة، لأن الحارس يقف على رأسك ينتظر منك أي اشمئزازاً لينهال عليك لطما ورفسا، وتُضْرَب فقط لأنك مصابٌ بمرض الحمى! هكذا تجري إماتة أي رد فعلٍ سوي لديك! ويتبدل حينها الرائي والمرئي من كل شيء سوى الإحساس بالإهانة! ففي حياة الإنسان هناك لحظات يمكن أن يُظهر فيها نقمته - وهي نقمة تنجه لا إلى الأمل والقسوة التي لاقاها¹⁰ - ولكن إلى الإهانة التي ارتبطت بها! الإهانة التي تتجاوز خدش قداسة "مَعْبَد" الجسد المتسامي! إلى خدش معبد الروح الرباني!.

البلادة¹¹ تصبح حيلة دفاع ذاتي ذات أسباب نفسية - جسدية يتفوق فيها المرء لينكص إلى الأحلام البدائية/الأحلام البيولوجية¹² التي تدور حول الخبز

⁸ (م.س. ص: ٤١، ٧٧).

⁹ (م.س. ص: ٤٢).

¹⁰ (م.س. ص: ٤٢).

¹¹ في لحظات الأزمات التي تستمر طويلاً ثم تنفث فجأة يتم استشعار درجة ذبول وتجمد المشاعر بالسرور، والجمال إلخ... الملحوظة عند الخارج من تلك الظروف القاسية غير المستشعر لحدث وصدمة زوال الأزمة المفاجئ في حالة من تدني درجة الانفعال لديه والتي تم ترويضها بشكل سالب، الأمر الذي يتطلب رعاية تعيد الفطرة السوية إلى طبائعها الإنسانية النقية (انظر: (م.س. ص: ١١٩ - ١٢٢)..

¹² (الأحلام البيولوجية) مصطلح قمتُ بسكّه قاصداً به وصف المهستيريا الساعية للتمركز حول الإشباع الأولي لحاجات قيام الإنسان الضرورية، والتي لا يتمحور حولها الوجود الغائي الاستخلافي لعمارة العالم ورعايته من قبل الإنسان، وليس في هذا دعوة للرهبنة والغنوصية والفلسفة والتصوف المهملين للجسد المقدس ربانياً؛

والكعك والسجائر والحمامات الساخنة اللطيفة! إلخ... والتي يتم السعي إليها عند فقدانها بـ: الأحلام المَنَامِيَّة لِإِشْبَاعِهَا^{١٣}.

والعجيب أن الاهتمام الديني ينمو بسرعة وبشدة في هذه الظروف، فعمق الإيمان الديني كان مدهشاً لأي زائر لتلك المجموعات البشرية المعذبة ذات الظروف العسيرة، الصلوات الارتجالية تُسمع وتُرى في كل زاوية من زوايا عربة نقل الماشية التي يركبون، حيث الجوع والبرد والملابس المهلهلة^{١٤}. أليس في هذا الاهتمام الديني لهؤلاء البؤساء معنى وجدوا فيه التسامي الذي يخفف عنهم آلامهم؟!.

من الحب وفي الحب يكون خلاص الإنسان: بهذه الرؤية يخترق فرانكل الأمل، ويتجه إلى الأمل، ففي الحب طموح غائي يجب أن يسعى إليه كل إنسان في عمق كل أزمة؛ والشعر، والفكر، والإيمان يجب أن يفصحوا عن هذه الغاية^{١٥} التي يدورون حولها، ويتغيون قممها، ووديانها المقدسة! فالحب هو الخاتم الذي يصمم نفسه على القلب، وهو في قُوَّتِهِ كالموت في وقعته^{١٦}!.

وإنما النقد يتوجه إلى أن يصبح الآني الضروري بديل عن الغائي الضروري ففي ذلك قتل لهما جميعاً وتصميم لخال التسامي الواعي المرتفع بهما معا في خط واحد يحملهما على كف الدهشة الصاعدة والنازلة.

¹³ (م.س. ص: ٥٢، ٥٥، ٩١). والسعي لهذا الإشباع يحيله فرانكل إلى الخشية فيما سواه أي أن العدم! سيكون مصير من فكر فيما عدا الطعام والشراب والملبس؛ وهذا وجيه جدا في حالة السجن هنا؛ لكن ماذا نقول عن الأسباب فيمن ليس هو يمثل هذه الحال؟! الأمر الذي يستدعي التأمل في الأوضاع العمرانية والحضارية ذات السلوك الذي هو من قبيل هذا الجنس السلوكي البدائي!.

¹⁴ (م.س. ص: ١٧٤، ١٢٢، ٩٨، ٨٨، ٥٩).

¹⁵ (م.س. ص: ٦٢).

¹⁶ الحب الذي هو انجذاب إلى الكمال، يتم التسامي إلى ذروته الإلهية: الله صاحب الكمال اللاهوائي. فالحب إن جاز تقريبه بشعاع مبعوث من ذات باعثة صاعدة إلى هذا الكمال اللاهوائي فإن الذروة تصبح هي المنظمة (عند من رضي بها منهاجا بالخيار الإسلامي مثلا) لكل أشكال وتعبيرات هذا الحب (بما فيها ممارسة الجنس السوي، الذي هو أحد الأشكال الرئيسة للحب) المتوالي نزولا من تلك القمة؛ وهنا تصبح الجوانبية الإسلامية

بواطن العمائق التي تفجر في الإنسان أشكال التعبير عن الحب من توق إلى رؤية الطبيعة، وإحساس بالجمال، (= لكون جوهر الوعي لا يمكن التوصل إليه إلا بالحب^{١٧}) والتعبير عن ذلك بكل معرفة فنية منظورة أو مسموعة، أو متخيلة، فيها التخفيف من الجوانب القاسية التي يلقاها بؤساء العالم^{١٨}. تعطي لهم التسامي والمعنى الذي يُسعى إلى ملامسته في أصعب اللحظات، ولو بالمنأخاة الواعية التي تُؤدّي أحيانا كحيلَة دفاع ذاتي مَرِحٌ ومُريحٌ من قلق الحاضر، يسمو بالذات ولو للحظاتٍ على الموقف الأليم^{١٩}، فإن كل ذلك يصبح من فنون الحياة بحثا عن المعنى، وتوقا إلى التسامي، وهروبا من الأوضاع التي تجردك من كل شيء: سوى أنك مجرد رقم في قائمة كئيبة!

الشخص الذي لا يستطيع أن يرى نهاية "وجوده المؤقت" لا يستطيع أن يرنو إلى هدف غائي في الحياة؛ فالخاصية المميزة للإنسان: هي أنه يستطيع أن يجيا عن طريق "تطلعه إلى الأمام" ومن يفقد ثقته بمستقبله يحكم على نفسه بالفناء، ويصبح عرضة للتدهور النفسي، والانهيار الجسدي والعقلي، ففقدان الأمل والشجاعة قد يكون لهما تأثير مميّت! وزوال وجودنا المؤقت لا يحتم أن يجعل وجودنا هذا بلا معنى.

إن الطريقة التي يتقبل بها الإنسان القدر هي التي تحدد ما سيكونه من معنى؛ فكل شيء من الممكن أن يُؤخذ من الإنسان عدا شيئا واحدا هو آخر بوارق حريته: أن يختار اتجاهه في ظروف معينة، أن يختار طريقه^{٢٠}! أن يختار المعنى

فاعلة في وجُودات العالم كل أشكال التعبير الجمالي (=قيمة الجمال/أصل الفنون) ومعبرة عن الحب المطلق من غير خلط بين الذروة الكمالية الإلهية (-وحدة الوجود)، والنسبية الجمالية الإنسانية الساعية إلى الكمالية.

17 (م.س. ص: ١٤٨).

18 (م.س. ص: ٦٥-٨٠، ٧٦) بتصرف.

19 لأن المعاناة حالة نسبية.

20 (م.س. ص: ١٠٠، ٩٦، ٩٤-١٥٩، ١١٣، ١٠٩).

والتسامي! أن يختار الأمل كعلاج عندما تكون الآلام والمعاناة جزءاً من الحياة لا تكتمل الحياة بدونها، ولا يملك الإنسان تغييرها.

السَّعْيُ لِلْعُثُورِ عَلَى مَعْنَى:

ويل لمن لا يرى في الحياة معنى! (= لماذا؟): لأن ما هو متوقع من الحياة ليس هو موضوع الأهمية بالنسبة لنا^{٢١}، فما يعيننا هو ما الذي تتوقعه الحياة منا؟! (=المسؤولية).

يكون للوجود أهمية تستحق أن نحياها عندما يكون هناك معنى وهدف نسعى في هذه الحياة لمعايشته، وللاستمتاع بمغزاه^{٢٢}، بل وأن نتخطاه دوماً دوماً في رحلة تسامي متعالية.

فحينما يشعر المرء أن المسؤولية الملقاة على عاتقه لن يقوم بها غيره^{٢٣}، يكون أمام دافعية داخلية للإبداع، وحافزية خارجية للإنجاز؛ أي أن وجوده يصبح لديه ذا معنى يسعى للتسامي به نحو الأفق بشوق وعظمة غير مصحوبة عند الواعي بها بأنانية آنية. فالمعاناة تصبح الصخرة التي يتحطم عليها كل خوف سوى الخوف من الله كما يقول فرانكل!

أن نتقبل المسؤولية التي ترتبت على وجود الهدف يعني أن المعنى آخذ في تشكله سلبا كان هذا المعنى أو إيجابا. لكن كيف يصل الإنسان إلى هذه المقدرة

²¹ (م.س. ص: ١٠٨).

²² (م.س. ص: ١٠) بتصرف.

²³ (م.س. ص: ١١١، ١٢٦).

الإنسانية المتميزة في الخيار الوجودي^{٢٤} للحياة؟ هذا ما يسعى فرانكل إلى فهمه؛ فالحيث يوجد فيه جنس إنساني مهذب، وجنس إنساني سافل؛ وكلاهما يتغلغلان في كل الجماعات البشرية^{٢٥}، ولا يوجد جنس نقي خالص، أو جنس سافل خالص! والواجب هو اختراق الوجود بحثاً عن المعنى! ليتم التسامي به.

العلاج بالمعنى (Logotherapy)^{٢٦} يركز على المستقبل، ومعنى الوجود الإنساني، والخروج من التمرکز حول الذات، حيث يواجه المرء بمعنى حياته التي ينبغي أن يتسامى إليها بعد أن يجدها، بـ: إرادة المعنى، هذه الإرادة التي هي قوة أولية وليست ثانوية، فهي ليست مجرد ميكانيزمات دفاعية، لأن الحياة أكبر من ردود الفعل؛ فالمثل والطموح مبررات للحياة والموت وليست مجرد ردود فعل غريزية كما يصورها التحليل النفسي التقليدي، فالمعنى (Logos=الروحي بالمفهوم الإنساني العام وليس بالمعنى الديني فحسب) ليس انبثاقاً من الوجود ذاته فحسب، بل شيء يواجه الوجود، ومعنى وجودنا^{٢٧} شيء لا نبتدعه وإنما نسعى لاكتشافه واستبانتته. فالضمير السليم هو أفضل وسادة! كما تقول المأثورة الألمانية، والأخلاق الحقة هي أكثر من حبة منومة، أو من عقار مهدئ لعضو منفعل!

²⁴ (م.س. ص: ١٧). مع أن فرانكل وجودي التوجه إلا أنه متسامح وعلى خلاف الوجوديين الأوربيين فهو ليس مفكراً متشائماً، أو معادياً للدين؛ بل على العكس من ذلك تماماً: إذ إنه يرى أن العلاج بالمعنى هو ديني أيضاً في متوالياته، وفي لفتته السابقة إلى الاهتمام الديني عند المعذبين دليل على ذلك!

²⁵ (م.س. ص: ١١٩) بتصرف.

²⁶ (م.س. ص:) بتصرف.

²⁷ خلافاً لجان بول سارتر.

فمهمة البحث²⁸ عن المعنى هي أن يجد المرء المعنى في الطريق؛ وما يحدث من صراع داخلي ليس بالضرورة مُعبراً عن مرضٍ يستدعي العقاقير المهدئة، بل شيء من الصراع والحرارة والطاقة (=الدينامكية المعنوية) الداخلية دليل وبرهان على سَوِيَّة الإنسان، وهي من مؤشرات الصحة النفسية؛ فحينما تكون في توتر بين ما أنجزته وبين ما لا يزال عليك أن تنجزه يصبح لحياتك الحرارة التي تدفعك إلى معنك²⁹! وليس وهم التوازن البيولوجي | النفسي، الذي يباهي به بيغاوات التقليد الحداثي من عرب اليوم وصبيانهم - إلا ما رحم ربك - فلو لم يكن الإنسان أعظم من الآلة لاستحققت القتل الرحيم، في الفرن الرحيم!.

ما ذُكر سابقاً هو البَلْسَم لحالة اللامعنى أو الفراغ الوجودي³⁰ - - قلقاً ومللاً في أوضاع أصبح الفتية فيها يعلنون بألسنتهم عن الجهاد في تضييع الوقت في...؟! بعد أن فقدوا كل جذوة وعي إنساني بله إيماني يُشعرهم بالإحساس بالزمن - - الفراغ الذي يقع ضحاياه فريسة للمسايرة والامتثال والتدجين الجماعي؛ كما هو بارز كظاهرة عالمية (=عولمية) في القرن العشرين ومطلع الحادي والعشرين، بشكل صارخ معلنةً الإحباط الوجودي: =العصاب الجماعي، والعدمية المادية: التي لا ترى للوجود معنى! - المنتهي غالباً بالتعويض الجنسي الغفل! التعويض الذي يصبح مُتفشيًا عند فقدان المعنى في هذا الفراغ الوجودي.

إذن البحث عن المعنى والتسامي إليه يحاول أن يستثير روح المسؤولية للعثور على معنى الحياة التي يجب أن يكونها الإنسان من ذاته هو هو لا من

²⁸ هذا البحث يمكن اعتباره أيضاً نوع من التحليل النفسي. والفارق بين العلاجين هو أن العلاج بالمعنى يركز على القيم والمعنى لتركيز الإنسان عليهما - حسب فرانكل - خلافاً للتحليل النفسي التقليدي الذي يركز على الأهواء والغرائز وإشباعها. أو ذلك التحليل المتمركز على حتمية البيئة والظروف المحيطة.

²⁹ في الألعاب الرياضية الواعية لأبعاد قصودها يمكن فهم هذا التوتر الحميم والمطلوب بين الذات والموضوع؛ بل إن بعض أنواع الزهد والتنسك تشبه الألعاب الرياضية في تناغم متوالي. (انظر: م. س. ص: ١٩٢).

³⁰ (م. س. ص: ١٢٩-١٤٤، ١٩٧، ١٨٢، ١٧٠). بتصرف.

إسقاطات الغير كل الغير عليه. فالمعنى ليس نصائح أخلاقية، ولا حتى تعليم منطقي - (المعنى أعمق من المنطق لمن تأمل!) - وإنما حفر في الضمير: الحفر في اليابسة بدل الماء، والفارق بين المعالج بالمعنى وغيره هو الفارق بين الرسام و طبيب العيون: فالرسام يحاول أن يرينا العالم كما يراه هو! أما طبيب العيون فإنه يساعدنا أن نرى العالم بأعيننا نحن!. ومع ذلك فإن الوجود الحقيقي للإنسان ليس فيما يسمى بتحقيق الذات³¹ فحسب، وإنما في التجاوز لهذه الذات التجاوز الذي لا يمكن أن يتم إلا من معناها والتسامي لمعنى معناها!.

والمعاناة والألم تزول بمجرد أن تكسب الحياة معنى متواليا متساميا مثل التضحية، فمن تُوفيت زوجته -على سبيل المثال- التي يحب وانهار من معاناة الفراق، يمكن أن يجد له سلوانا في التضحية بالبقاء بعدها حاملا للرسالة، وذاكرا لذكرها! فليس الهدف في العلاج بالمعنى تجنب الألم والحصول على اللذة، وإنما بأن يرى معنى في حياته! وهذا هو السبب في أن الإنسان مستعد للمعاناة شريطة أن يكون لمعاناته معنى!.

المشكلات الإنسانية وليست الأعراض العصابية هي أكثر ما يواجهه الناس اليوم، وهو أكثر ما يحير الفن الطب-|نفسى اليوم، فالأمر متعلق بمشكلات فلسفية، وليس صراعات انفعالية تحتاج إلى مسكنات كيماوية فحسب!.

الإنسان في النهاية صاحب قرار، ومسؤولية، يشكلان جوهر وجوده الفاعل ذي المعنى والفرادة المستقلة، فأحدى الخصائص المميزة له قدرته على التسامي فوق الموقف، والظروف، وبنفس المساق يسمو بذاته ويتجاوزها. هذا التسامي

³¹ وتحقيق الذات (اللذة مثلا) بقدر ما يسعى إليها الإنسان بقدر ما يخفق في الوصول إليها، فإنها ليست غرضا في ذاتها (=لذة جوفاء) - بالإضافة إلى كونها أنانية مقيتة - وبالتالي فليست هي المعنى الباحث عن المعنى إلى ما لانهاية كمالية لحدود صعودها في متوالية متدرجة لا غاية قصدية لإحدى حلقاتها على انفراد؛ فتحقيق الذات أتر وليس قصد. فلا يحقق الإنسان ذاته في هذا العالم إلا إذا وجد معنى.

يجعل من الصعب علينا التنبؤ بسلوك الإنسان المستقبلي³² الذي يخلو لسطحيي الفهم الدندنة التنجيمية حوله كي يبرزوا مقدرتهم البهلوانية بالتنجيم البدائي على عقول السذج من رعا ع الأتباع، والجماهير.

اليوم أصبحت أنسنة الطب النفسي³³ (ويا للعجب نعم الطب النفسي القائم موضوعه على إنسانية الإنسان) ضرورة يُلح عليها فحول البحث الابستيمولوجي في علوم النفس من أمثال فرانكل؛ فترعة التجريب السائدة اليوم يمكن القول أنها في طريقها إلى المتحف النفسي، أو بعبارة فرانكل الصارمة³⁴ "حلمٌ قد تبدد فقط لأن كينونة الإنسان تعني توجهه نحو شيء آخر غير شخصه!"؛ في إشارة منه إلى: (=عالم ما وراء الذاتية) فلكي تكون إنساناً يعني أن تكون مُطالباً بمعنى تنجزه، وبقيم تحققها، وهذا هو جوهر الوجود الإنساني؛ حتى في الرؤية الإسلامية كما نعتقد.

وَحَيْثَ أَمَا:

هناك أمران يفرضان الاهتمام بهذا النوع من الدراسات "النفْسَ | فلسفية"³⁵:

الأول: عمومية: تأزم أوضاع الإنسان العالمية، في مطلع القرن الواحد والعشرين، فعصر العولمة صبغ الخصوصيات الثقافية بعداً كونياً في مرحلة ما

³² (م.س. ص: ١٧٣، ١٨٨). بتصرف.

³³ (م.س. ص: ١٤٦-١٧٧). بتصرف.

³⁴ (م.س. ص: ١٩١) بتصرف. مع الإفادة من هذه الخبرة الكلينيكية غير الوحيدة منهجا وموضوعا، وهو رأي ماسلو (انظر: تعليقات على دراسة فرانكل، ماسلو، م.س. ص: ٢٠٠).

³⁵ مع أن أهم نقد وجه لأطروحة فرانكل في العلاج بالمعنى هي: عمومية التوصيف، إلا أن هذا النقد يقف على أرض متحيزة متشابهة مع المدرسة التحليلية التقليدي/ الفرويدية، وبرهان هذا التحيز: عدم وجود الأبحاث الكلية الباحثة في الظاهرة النفس-إنسانية من غير هذه المدرسة، من أمثال أطروحات هسرل الظاهرانية، الأمر الذي يكشف تحيزات النقد الإنساني/ماسلو لفلسفة المعنى وإن بشكل مصالحة ظاهرية.

بعد/وتحت الحداثة، حيث إفرازات اقتصاد السوق الحر تدك ضمائر الداخل فيها بحثا عن هويته المتميزة، الأمر الذي يجعله "باحثا عن المعاني الغائية" في إطارها الجمعوي الذي يتبدى فيه المرض الجماعي أو ما يُعرف بـ "سيكوباتولوجيا الجماهير"³⁶ وتوتر الأعصاب لإنسان هذا الوجود الجديد، لبحث عن وجودٍ سوّبي، إن كان ذا ضمير سوّبي!، " فالإنسان مخلوق يبحث عن معنى"... كما يقول أفلاطون.

الثاني: خصوصية: تصوّر كل تشكيل حضاري في رؤيته للكون ومسائل النهاية، والمصير، والغاية، والزمان، والمكان، إلخ... فبالنسبة للحضور الإسلامي الزماني والمكاني عبر التاريخ في التشكيل العالمي كان محفزا لأبحاث من قبيل هذا النوع من الدراسات مَضَانَهَا مَبْثُوثَةٌ في مدونة التراث العربي والإسلامي فلسفيا وكلاميا؛ ولئن كان القرآن الكريم قد أعطى المسلم به، والداعي إليه، رؤيته للوجود بما هو صائر إليه، وقادم منه، فإن ذلك لا يتقاطع هنا مع البحث المتسامي الذي تحفز إليه آيات النظر الآفاقية، والأنفسية بنص القرآن المحكم، بل يصبح دعوة إلى التسامي الدائم حساً ومعنى، وكلاهما منهج تحديدي لـ: "موضوع التسامي اللاهائي غاية" التي هي تلك الآفاق الآفاقية، وهذه الآفاق الأنفسية، في رحلة البحث الملموس، والمشعور، عن كل ما هو "مُطْلَقٌ" الإطلاق الذي يخوض تجربته الوجودية الفرد لوحده من غير وسائط، حيث تكون الغاية الوصولية الفردية أمرية في صيغة خبرية: {وكل آتية يوم القيامة فرداً}. وتلك هي عين الحرية الروحية والعقلية التي تجعل الحياة ذات معنى وهدف؛ والتي يمكن الاحتفاظ بها في أشد الظروف النفسية والمادية بشاعة وألم³⁷، الحرية التي تفجر الإبداع الذي لا ينضب!.

³⁶ (م.س. ص: ٢٥).

³⁷ (م.س. ص: ٩٥، ٩٤، ١٧٥) بتصرف.

والله أعلى وأعلم.

أحمد الحمدي/السعودية

باحث سعودي، مهتم بالفكر الفلسفي، والدراسات المعرفية القرآنية

١٤٢٩/١٠/١٦هـ

٢٠٠٨/١٠/١٦م.

Aalhamdi48@hotmail.com

=====

س/ ما طبيعة هذه الخواطير؟

ج/ حروف مختصرة، هي: (طرُق) و (عرض) لمقولات، أو موضوعات، كانت محوراً لكتاب قرأته، أو مفهوم أحاول فهمه؟ وبلورتها! . أضعها هنا لمصافحة بصائرکم، وأناملکم!.